الذي يلعبه الدين في مرحلة التحرر الوطني، وقامت الحركة القسّامية، التي لم تُدرس من هذا الجانب[٣٣]، بتقديم نموذج منه، على غاية من الاهمية، باعتبارها ميداناً لمثل هذا البحث.

منـذ البـداية، يمكن ملاحظة أن النضال الدعاوي الذي مارسه القسّام، توجه نحو تصفيـة الحسـاب مع نوعين من الخصوم، في اطار الفكر الاسلامي. الخصم الأول وهو الاتجاه المتمثل بسلطة العلماء التقليديين؛ وهم المعبرون عن المؤسسة التقليدية الدينية؛ أما الخصم الآخـر، فهـو الاتجـاه الذي تمثله التيارات الصوفية، وبعض الجماعات الدينية الأخـرى، التي ارتبطت ممارستها الدينية بالشعوذات والخرافات التي كانت تجد صدى عميقاً لها في الريف الفلسطيني.

ان خوض هذا النضال المزدوج، على الصعيد الايديولوجي، كان يستهدف الحد من تأثير نوعين من النفوذ؛ وهما، على الرغم من تعارضهما الظاهري، كانا يتبادلان التأثير سلباً في المشروع الذي يطرحـه الشيـخ، نتيجـة السـطوة التي يمتلكانها في البنية الاجتماعية الفلسطينية. لقد كانت المجابهة الايديولوجية مع المؤسسة الدينية التقليدية، تهدف الى الحد من تأثير نمط من الادلجة الدينية؛ ذلك الذي كان يقصر دور الدين على مجرد شكل من الوعظ والارشاد، فتتحول معه العقيدة الاسلامية الى مجموعة من الأحاديث والنصوص الفقهية، والتي غالباً ما ظلت محصورة في اطار اثارة مسائل لها طابع فقهي وتشريعي تتناول شؤون العبادة، ولا تتجاوزها إلى طرح المشكلات الحياتية والسياسية.

أما المجابهة الأخرى مع اصحاب الطرق الصوفية، والمجموعات الأخرى، فكانت تهدف الى تحـرير العقيدة الاسلامية من اشكال الشوائب والخرافات التي كانت هذه الممارسات تضفيها على الدين، والتي كانت مستفحلة في المناطق الريفية الفلسطينية، حيث تغذي النزعة الاتكالية والسلبية والهروب من مواجهة الواقع الذي يتمثل بالخطر الصهيوني والاحتلال الاجنبي.

ان الشكل الذي اتخذته هذه المجابهة، على صعيد الدعوة، يمكن ان يحدد امامنا البناء الفكـري والثقافي الذي انطوت عليه الممارسة الايديولوجية للقسّام. وهو ما يمكن ان يجد تلخيصه عبر نقطتين:

الأولى، رفض شكل من الادلجة الدينية ينظر إلى العقيدة الاسلامية على انها مجموعة من النصوص والأحاديث الفقهية؛ كما يتبدى في الوعظ الرسمي السائد. ويؤسس هذا الرفض لنزعة تتجه الى التشديد على ما هو دنيوي، مع كل ما يترافق مع هذه النزعة من اعادة تأويل للعقيدة الاسلامية تحت تأثير عوامل وظروف سياسية واجتماعية.

الثانية، الاستمرار في السير بالخط الاصلاحي للحركة السلفية في محاربة اشكال البدع والخرافات التي شوهت العقيدة الاسلامية، بالتشديد على رفض النزعة الاتكالية والسلبية، وذلك من أجل اعادة الاعتبار إلى العقيدة الاسلامية، بوصفها عقيدة نضالية تشجع على روح العمل والمبادرة، وترفض الانهزامية والسلبية.

وهكذا يمكن القول، ان النضال الايديولوجي الذي خاضه القسّام كان يتم وفق الحاجة الى بناء عقيدة مناضلة، وهو ما يتأكد في خطابات القسّام عبر تشديده على استلهام السيرة الأولى للاسلام؛ أي ذلك الجزء من تاريخ الدعوة الاسلامية، الذي يبرز فيه، اكثر من غيره، الجانب الكفاحي للعقيدة الاسلامية، باعتبارها ايديولوجيا ثورية تسعى الى التغيير.